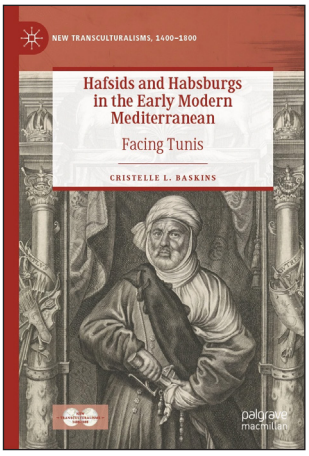

Cristelle Baskins.- ***Hafsids and Habsburgs in the Early Modern Mediterranean: Facing Tunis*** **(Cham: Palgrave Macmillan, 2022), 313p.**

يُعتبر القرن السادس عشر أحد أكثر الحقب الزمنية غموضًا في تاريخ البلاد التونسية، إذ يفتقد الباحثون بخصوص هذه الحقبة للمصادر التاريخية والوثائق الأرشيفية المحلية. ولئن تعددت المصادر نسبيًا حول بداية الدولة الحفصية، حيث نجد مصادرًا مثل كتاب **العبر** لعبد الرحمان بن خلدون (1332-1406)، وكتاب **الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية** (1402)، لابن القنفد القسنطيني، وكتاب **الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية** (1457)، لأبو عبد الله محمد بن الشماع، ثم كتاب إبراهيم اللؤلؤي الزركشي بعنوان: **تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية**، الذي انتهى من تأليفه في حدود سنة 1488، ويعتبر آخر مصدر عن الدولة الحفصية، فإننا لا نعثر في القرن السادس عشر تقريبًا على أي مصدر إخباري محلي، بل كان علينا الانتظار إلى نهاية القرن السابع عشر لنجد مصدرًا محليًا تونسيًا، ويتعلق الأمر بكتاب **المُؤنس في أخبار إفريقية وتونس**، لأبو عبد الله ابن أبي دينار. وقد قدم لنا ابن أبي دينار، بالاعتماد على الذاكرة الجماعية لسكان مدينة تونس أخبار ذلك "القرن العصيب" كما يُسميه عدد من الباحثين التونسيين، حيث يقول: "..وهُنا انتهى النقل الذي قيَّدهُ الزركشي ولم أطلع على ما سواهُ إلا ما تلقيتهُ من أهل الحاضرة، ولهذا نأتي به جملاً لا تفصيلاً، ولم أُقيد نفسي لتاريخ الوقائع لقلة الضبط، ولم أجد من لهُ اهتمام بهذا الأمر...."

وتماهت الإسطوغرافيا التاريخية المُعاصرة، إلى حد كبير، مع وتيرة المصادر المحلية، فنجد عددًا مُحترمًا من الدراسات حول الدولة الحفصية قبل القرن السادس عشر، يُمكن أن نذكر منها على سبيل المثال العمل المرجعي لروبار برنشفيك تحت عنوان: **تاريخ إفريقية في العهد الحفصي**، وكتاب محمد العروسي المطوي، بعنوان **السلطنة الحفصية: تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي**، ثم دراسة محمد حسن تحت عنوان: **المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي**، بالإضافة إلى كتاب ميشال لاور بعنوان: **الحملة الصليبية على تونس سنة 1270: تاريخ متوسطي**:

(Michael Lower, The Tunis Crusade of 1270: A Mediterranean History).

وفي المقابل، فإن الدراسات المتعلقة بتاريخ تونس القرن السادس عشر، أي ما أسميه مرحلة "احتضار الدولة الحفصية،" تظل محدودة جدًا بالمقارنة مع الحقب السابقة واللاحقة في تاريخ تونس، إذ لا يمكن أن نذكر سوى بعض الأعمال التي أنجزها في الغالب باحثون أوروبيون، دون إغفال دراسات الأستاذ عبد الجليل التميمي التي اعتمد فيها أساسًا على المصادر العثمانية، وهو الأمر ذاته الذي قام به مؤيد المناري في كتابه الصادر في بداية هذه السنة تحت عنوان: **عثمنة مدينة القيروان وأثرها في معالم القرنين السابع عشر والثامن عشر (1557-1782)**.

وبناءً على كل ما سبق، يمكن القول إن عمل كريستال باسكنس من جامعة توفس الأمريكية - الذي يصعب تعريب عنوانه بدقة وصياغة لغوية سليمة وواضحة -، يتناول موضوعه العلاقة، أو على الأصح، المواجهة بين تونس زمن الحفصيين والهابسبورگ، وذلك في سياقات عوالم ضفتي البحر الأبيض المتوسط عند أوائل العصر الحديث. ويتعلق الأمر منذ الوهلة الأولى، بكتاب يستحق في واقع الأمر، غاية الترحيب لدى أوساط الـمُختصين في دراسة تاريخ تونس خلال القرن السادس عشر، خصوصًا وأن الباحثة راوحت من حيث منهجيتها بين اعتماد المقاربة التاريخية وتوظيف مقومات تاريخ الفن، فكانت مصادرها مُتنوعة، بين وثائق أرشيفية أوروبية مُختلفة، وأعمال فنية البعض منها غير معروف، وكل هذا مع الإلمام الواسع بالدراسات التي تناولت بالبحث الحقبة المدروسة بمختلف اللغات الأوروبية بما في ذلك كتابات العالم الأنگلوسكسوني.

وتجدر الإشارة في البداية، إلى أن الكتاب لا يتناول بالدرجة نفسها مُجمل تاريخ العلاقة بين الحفصيين والهابسبورگ على امتداد القرن السادس، أي في سنوات التواصل بين الأسرتين الحاكمتين في تونس وإسبانيا، بل يُركز على شخصية مولاي الحسن الحفصي "البطل الرئيسي" في الكتاب -إن صح التعبير-، بمعنى المدة المتراوحة بين سنتي 1534 و1549، والتي تُمثل ما يمكن أن نطلق عليه "الحقبة الهابسبورگية" في حياة "أمير المؤمنين" وسلطان تونس مولاي الحسن، الذي لجأ في صيف سنة 1534 إلى الإمبراطور كارلوس الخامس طالبًا نجدتهُ، بعد أن تمكن "القرصان" أو "المجاهد البحري" العثماني خير الدين بربروسا من السيطرة على مدينة تونس.

وعلى الرغم من نجاح "حملة تونس" في إعادة مولاي الحسن إلى الحكم في صيف سنة 1535، والاحتفاء بها بطريقة باذخة في الكتابات الإخبارية والأدبية والأعمال الفنية الإسبانية، كما تُبينه كريستال باسكنس، فإن مرحلة حكمهِ الثانية لم تُعمر طويلاً وهو السلطان "الفاقد للمهابة"- على حد عبارة الأستاذ لطفي عيسى- عند الرعية التي لم تقبل استنجاده بالإسبان

المسيحيين وحتى الأقرباء، الذين كان من بينهم ولي عهدهِ وابنه مولاي حميدة الذي انقلب على والدهِ سنة 1543، فأسرهُ وسمل عينيه. ولكن مولاي الحسن، باعتباره الشخصية التي ألهمت بطريقة ما الكاتبة وسحرتها - كما كتبته بقلمها - لم يقنع بمصيره، بل لجأ من جديد إلى الضفة الشمالية لحوض البحر الأبيض المتوسط، مُحاولاً إقناع كارلوس الخامس وقواده بنجدتهِ مرة أخرى وإعادته إلى سدة الحكم، ليفارق الحياة وهو يطارد هذا الحلم، في رفقة القائد البحري الشهير أندريا دوريا (Andrea Doria)، في حملته على المهدية سنة 1550.

هذه المسيرة الفريدة لمولاي الحسن الحفصي خصوصًا، وتلك الحملة على تونس، الـمُحتفى بها كثيرًا في الوثائق والأعمال الفنية والنثرية ضمن منعطفات تاريخ الهابسبورگ الإسبان، هي التي كانت محل بحث وتحليل في الكتاب موضوع هذه المراجعة.

وفضلا عن التقديم والاستنتاجات التي وقع تضمينها في متن الفصل السادس، ينقسم الكتاب إلى خمس فصول. وقع تخصيص التقديم (الفصل الأول) لعرض الكتابات التاريخية ذات الصلة بالموضوع وبالمنهجية الـمُتبعة في الكتاب، مع تأكيد الكاتبة على أهمية الـمُقاربة القائمة على تاريخ الفن في فهم تاريخ شمال أفريقيا خلال بداية العصور الحديثة، مُشيرةً إلى أن المنطلق في تدوين الكتاب ككل، والمنهج الذي اتبعتهُ خصوصًا، هو الرسومات الفنية الخاصة بمولاي الحسن، باعتبارها أعمال لا تكشف فقط عن جوانب الشخصية المرسومة، بل عن الحقبة الزمنية التي عاش فيها عموما، وأساسًا النظرة والعلاقة مع الهابسبورگ.

وفي الفصل الثاني، استندت الكاتبة أساسًا على المصادر الإيطالية والإسبانية، من قبيل أعمال ليون الأفريقي، أو الحسن الوزَّان، وبَّاولو جِيُوفيو (Paolo Giovio)، وبرودنثيو دي ساندوڤال (Prudencio de Sandoval)، فعملت على تحديد الإطار التاريخي للكتاب، حيث تابعت تطور العلاقات بين ملوك شبه الجزيرة الإيبيرية والحفصيين منذ العصور الوسيطة، والتي تميزت بعلاقات ودية بين سلاطين تونس وملوك أراگون، كما تدل على ذلك المعاهدات التي تعود إلى تلك الحقبة، وصولاً إلى التحالف بين الحفصيين والإسبان الهابسبورگ في القرن السادس عشر.

وتتبعت المؤلفة في المحور الثالث وبطريقة مُفصلة، تدل على المجهود الكبير الذي بذلتهُ، الصورة التي رسمتها اللوحات أو عموم الأعمال الفنية ذات الصلة بشخص مولاي الحسن في ما يعرف بالأعمال الـمُخَلدة لانتصار كارلوس الخامس في تونس سنة 1535 عند مروره في طريق العودة بإيطاليا، مُبرزةً أن هذه الأعمال، وعلى الرغم من اختلاف الصور التي قدمتها، فقد كان العنصر الجامع بينها هو تقديم مولاي الحسن في مرتبة الشخصية الثانوية. أو ما

يمكن تسميته من منظور مسرحي في هيئة "الكومبارس،" بغية تصوير مشهد يكون بطلهُ دون مُنازع هو "الإمبراطور الروماني المُقدس" كارلوس الخامس، الـمُتَّصف بكل الفضائل التي جعلتهُ يُنجد السلطان "الـمُستضعف" أو "الـمُهان" من قِبل الأعداء الأتراك، على الرغم من الاختلاف الديني االموجود بين الطرفين. هذه الصورة كما عكستها الأعمال الفنية، تُظهر الحالة الـمُعقَّدة أو الـمُركبة بين ضفتي المتوسط في بداية الحقبة الحديثة، فمن جهة أولى، تمثل "حملة تونس" انتصارا للمسيحية على الإسلام واستعادة لأمجاد العصور القديمة، حيث كثيرًا ما تمت المقارنة في الأعمال الفنية والنثرية الأوروبية بين الانتصار الروماني على القرطاجيين وانتصار الجيوش الإسبانية على الأتراك العثمانيين في تونس. كما جرى تشبيه الإمبراطور الـمُقدس كارلوس الخامس بالقائد الروماني سكيبيو الإفريقي (Scipio Africanus)، الذي هزم حنبعل في معركة زامة الشهيرة سنة 202 ق.م؛ ومن جهة ثانية، فإن حملة سنة 1535 تُعبر كذلك فنيًا، عن نوع من التجاوز للصراع الديني بين المسيحية والإسلام، فمولاي الحسن يعتبر بمثابة "حليف مُسلم" اقتضى العدل ورفض الظلم الذي اتصف به الملك كارلوس الخامس، نجدَتهُ وإعادَتهُ إلى مقاليد حكمه الـمُغتصب.

وفي الفصل الرابع والخامس، سعت المؤلفة إلى رصد تمثلات رحلتي مولاي الحسن إلى أوروبا وبالتحديد إلى إيطاليا باحثاً من جديد في سبل الحصول على نجدة كارلوس الخامس وقواده، حيث رصدت تطور صورة هذا الملك الـمُسلم في أوروبا بداية العصور الحديثة، وجذور مُختلف التمثلات، التي لم تغب عنها الأبعاد التاريخية والجغرافية، في علاقة مع الماضي الأندلسي في إسبانيا والعلاقات بين ضفاف حوض البحر الأبيض المتوسط الأوروبية ومثيلتها الـمُسلمة.

أما في الفصل السادس، وفضلا عن مجموع القضايا التي وقع طرحها في علاقة بالرسومات الشخصية لمولاي أحمد ابن مولاي الحسن، والتي هي من بين أعمال فيرماين (Jan Cornelisz Vermeyen)، وروبنس (Peter Paul Rubens)، فقد تطرقت الكاتبة بإيجاز لا يخلو من التكثيف إلى التمثلات الفنية الخاصة بنهاية الحضور الإسباني في تونس، أي المدة المترواحة بين سنتي 1573-1574. إذ على الرغم من نجاح الحملة التي قادها خوان دي أوستريا، الأخ غير الشقيق للملك الإسباني فيليب الثاني، لاستعادة البلاد من جديد من قبضة العثمانيين سنة 1573، بعد نجاح حاكم الجزائر قلج علي في السيطرة على عاصمتها تونس سنة 1569، وتنصيب حاكم حفصي صوري هو مولاي محمد، مع إخضاع العاصمة هذه المرة لصلاحيات الحكم الإسباني الـمُباشر، فإن ذالك النجاح لم يستغرق سوى سنة واحدة، إذ نجح سنان باشا في صيف سنة 1574 في طرد الإسبان والقضاء بصفة نهائية على حكم الدولة الحفصية في تونس.

وإجمالاً، يُمكن التأكيد من جديد على أهمية كتاب كريستال باسكنس، سواءً بالنسبة للمشتغلين على تاريخ تونس في القرن السادس عشر، أو لدى المهتمين بتطور العلاقات بين ضفتي المتوسط الشمالية والجنوبية في بداية العصور الحديثة، أو مع الباحثين المهتمين بتطور الفنون المرتبطة بالتمثلات المسيحية/ الأوروبية للآخر المسلم. وكذلك، حسب رأيي، فإن الكتاب كفيل بفتح العديد من أبواب البحث غير المطروقة، كما يطرح قضايا كثيرة استطاعت الكاتبة في كثير من الأحيان الإجابة عنها، وفي أحيان أخرى مثّل طرحها لتلك القضايا دعوة سخية لمباشرة المزيد من أعمال البحث والتحليل في شأنها.

حُسام الدين شاشية
جامعة تونس